المـدينـة الفـلسطينيـة

د. أديب الخطيب

تعتبر فلسطين من اقدم مواطن الاستقرار البشري. ويعتقد بأن البدايات الاولى لمراكز الاستقرار البشري المنظّم ظهر في مدينة اريحا الفلسطينية. ومنذ اكثر من عشرة آلاف سنة والمجمّعات البشرية الفلسطينية في تقدم وتقهقر.

معظم الشعوب التي سكنت فلسطين خلّفت آثاراً مدينية؛ ولكن الكنعانيين والفلسطينيين هم أكثر الشعوب التي تركت مخلّفات مدينية واضحة المعالم. وقد ادّت العوامل الطبيعية، والبشرية، الى اقامة مدن ومراكز استقرار، بعضها نما وكبر، وبعضها تلاشى كلياً، او جزئياً، وقسم منها شهد فترات من النمو والازدهار والانكماش.

وقد توفّرت للمراكز المدينية الفلسطينية، وبدرجات متفاوتة، عناصر النمو المديني، كالسكان والمؤسسات والتكنولوجيا وظروف البيئة، والتي تظهر، بوضوح، عند درس ايكولوجية المدينة الفلسطينية.

وقد عملت الهجرة الوافدة، والهجرة القسرية، والظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، على احداث اختلافات بين المدن الفلسطينية، فظهرت المدن الغربية، وبقي بعض المدن عربياً، وظهر اختلاط في البعض الآخر، فلا هو بالعربي الخالص، او بالغربي، وكذلك ظهرت مدن اللاجئين، كما هو الحال في مدن قطاع غزة.

وللتعرف على ايكولوجية (تبيّؤ) المدينة الفلسطينية، تمّ البحث في ايكولوجية مدينة نابلس، ثاني مدن الضفة الفلسطينية، بعد مدينة القدس، من حيث عدد السكان، حيث يظهر الاختلاف جلياً بين المدينة الفلسطينية والمدن الغربية. ولا يمكن تفسير ظاهرة النمو المديني الفلسطيني في ضوء النظريات المستخدمة في الدول الغربية، بل يجب ادخال عناصر خاصة بالمدينة الفلسطينية، لتفسير نموّها.

ان المدينة الحديثة هي نتاج عملية تطويرية تعكس قدرة الانسان على تكييف عناصر المكان ليتمكّن من خدمة نفسه، وتأمين استمراريته واستمرارية بني جنسه. وقد قامت المدينة متأثرة بفائض انتاج الغذاء الذي سمح باطعام أفراد من المجتمع انقطعوا لأعمال غير زراعية[1]. وقد أدّت الظروف الاجتماعية المرافقة الى اطراد ليس فقط في عدد المستوطنات المدينية بل الى زيادة في حجمها وتنوّع في وظائفها. ولذلك نرى اختلافاً بين دول العالم الصناعية منها والأقل تقدماً في حجم وعدد وايكولوجية وتنوّع استخدامات الأرض في مدنها.

تعود بداية الاستيطان البشري في فلسطين الى أكثر من ثمانية آلاف سنة قبل الميلاد[2]. وقد تعدّدت الآراء حول النشوء الأول للمراكز المدينية، التي كانت عبارة عن مستوطنات صغيرة